

اللغة العربية لغة عالمية

الأستاذ الدكتور محمد عصفور

عضو مجمع اللغة العربية الأردني

الثلاثاء ١١ ربيع الآخر ١٤٤٠ هـ - الموافق ٤ كانون الأول ٢٠١٨ م

المُلخَص

يناقش هذا البحث موضوع عالمية اللغة ومعايير الاعتراف بها والتي تعتمد اعتماداً كبيراً على السياسة والقوة، ويناقش الأسباب الكامنة وراء اختيار اللغات لغات رسمية.

يتناول هذا البحث ثلاث مفارقات في عالمية اللغة العربية: أولاً أن العالم العربي في الوقت الحاضر يستورد كثيراً من العمالة الأجنبية، وهذه عملية يمكن أن ينتج عنها شيئان إيجابيان: أولهما نشر اللغة العربية في العالم، وثانيهما تحقيق دخل لا بأس به، أما ما يحصل فهو أن التفاهم يجري بلغة وسيطة هي اللغة الإنجليزية، فالأمر المعتاد في بقية أنحاء العالم هو أن العمالة الأجنبية مضطرة لتعلم لغة البلد الذي تنوي العمل فيه.

أما المفارقة الثانية فهي أن العالم العربي الذي يزدهر بأن لغته العربية لغة عالمية لا يثق بهذه اللغة ثقة تجعله يؤمن بأن هذه اللغة تصلح للتعليم الجامعي في مجال العلوم، أما المفارقة الثالثة أن هذه اللغة العالمية، لغة الدين والدولة في أي بلد عربي، تحتاج إلى قانون لحمايتها.

ترد في سفر التكوين من الكتاب المقدس قصةً طريفةً عن بُرجِ بابل الذي بناه بنو البشر لكي يصلوا به إلى عَنان السماء، وكانوا آنذاك يتكلمون لغةً واحدة. وعندما رأى الربُّ ما فعلوا قال:

"هو ذا شعبٌ واحدٌ ولسانٌ واحدٌ لجميعهم، وهذا ابتداءؤهم بالعمل. والآن لا يتمتع عليهم كلُّ ما ينوون أن يعملوه. هَلُمَّ نَنْزِلْ وَنُبَلِّلْ لِسَانَهُمْ حَتَّى لَا يَسْمَعَ بَعْضُهُمْ لِسَانَ بَعْضٍ. فَبَدَّدَهُم الرَّبُّ مِنْ هُنَاكَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الْأَرْضِ، فَكَفَّوا عَنِ بُنْيَانِ الْمَدِينَةِ" (سفر التكوين ١١: ١-٩).

وقد وَجَدَتْ هذه القِصَّة مكاناً لها في لسان العرب تحت مادَّة بَلَّلَ على النحو الآتي:

"الْبَلْبَلَةُ بَلْبَلَةُ الْأَلْسِنِ، وَقِيلَ: سُمِّيَتْ أَرْضُ بَابِلَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حِينَ أَرَادَ أَنْ يَخَالَفَ بَيْنَ أَلْسِنَةِ بَنِي آدَمَ بَعَثَ رِيحاً فَحَشَرَهمْ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ إِلَى بَابِلَ فَبَلَّبَلَ اللَّهُ بِهَا أَلْسِنَتَهُمْ، ثُمَّ فَرَّقْتَهُمْ تِلْكَ الرِّيحُ فِي الْبِلَادِ".

وقد انشغل علماء اللغة في العصر الحديث بفكرة اللغة الواحدة التي سادت في العالم قبل البلبلية تحت مسمى (protolanguage) أو اللغة الأصلية، لكن الفكرة ظلت ضرباً من الخيال. وانشغلوا أيضاً بفكرة اللغة الواحدة التي يمكن أن تُبتكر ليتكلمها أناس من قوميات مختلفة من أجل التفاهم والتواصل. وقد وضعوا بالفعل لغة مصطنعة سمَّوها لغة (الإسپرانتو) التي يمارسها عدد من الهواة الذين يتواصلون فيما بينهم في أوروبا تواملاً هو أقرب إلى اللعبة الفكرية منه إلى اللغة الطبيعية. لكنَّ أفضل ما تمكَّن علماء اللغة من صنعه هو تجميع اللغات على هيئة عائلات

لغوية؛ منها على سبيل المثال عائلة اللغات السامية وعائلة اللغات الهندية الأوروبية، وعائلة اللغات الصينية التبتية.

أما في القرآن الكريم فتد الآية الكريمة التي تقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات ١٣). ومن الواضح أن الوضع الأصلي في هذه الصيغة من أصل اللغات هو الاختلاف، وأن الهدف هو التعارف. أي إن التعارف ممكن رغم الحواجز اللغوية والطبيعية. وهذا التعارف ضروري لأن بقاء الجنس البشري غير ممكن لولاها. وهذا التعارف يحتاج إلى أن تتعلم الأقوام لغات الأقوام الأخرى. وعند هذه النقطة من المشكلة نصل إلى التاريخ الإنساني، لأننا في التاريخ الرباني لها نصل نقطة الجهل المطلق حيث لا نملك سوى التسليم.

في التاريخ الإنساني يمكننا الاستشهاد بما توافر لدينا من أدلة على أن انتشار أي لغة من اللغات خارج النطاق الجغرافي للناطقين بها يرتبط في أكثر الأحيان بالقوة العسكرية. والأمثلة على ذلك معروفة، منها انتشار اللغة اللاتينية في أرجاء الإمبراطورية الرومانية، وانتشار اللغة العربية مع توسع الفتوحات الإسلامية، وانتشار اللغات: الإسبانية والإنكليزية والفرنسية في العالم مع انتشار الاستعمار الإسباني والبريطاني والفرنسي في أرجاء المعمورة. وما يقال عن قوة اللغة بحد ذاتها إنما هو من قبيل ما توحى به الآية الكريمة التي تقول: ﴿كُلُّ جَزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾. فعلماء اللغة يقولون إن اللغات كلها قادرة على التعبير عن الأفكار كلها بأساليبها هي^(١).

(١) انظر كتاب

R. M. W. Dixon, *Are Some Languages Better than Others?* (London: Oxford University Press, 2016).

لا تعيش الأقوام المختلفة التي تتكلم بلغات مختلفة في جزر منغلقة على ذاتها لأنها تحتاج لبقية الأقوام المحيطة بها، ولأن الحاجات البشرية تتسع باستمرار، ويصبح ما عند القوم (أ) مطلوباً عند القوم (ب)، ولذا فإنهم يحصلون عليه إما بالمتاجرة السلمية أو بالقوة العسكرية. وهذا ما يستدعي اختلاط قوم بقوم، ويؤدي في آخر المطاف إلى جلب الأشياء الجديدة مع مسمياتها.

في العصر الحديث يستورد العرب العلوم الحديثة والمنتجات الصناعية من الأمم الناطقة باللغة الإنكليزية وبغيرها من اللغات، ويستوردون بهذه اللغات ما تنتجه الأمم الأخرى من الصناعات والبضائع. ولا شك في أن اللغة الإنكليزية أكثر اللغات شيوعاً في الوقت الحاضر، ولكن شيوعها يختلط في أذهان الكثيرين بفكرة لا أساس لها من الصحة وهي أن اللغة الإنكليزية أسهل للتعلم من غيرها، وأن اللغة العربية بالمقارنة مع اللغة الإنكليزية لغة صعبة. وإن كان ثمة من قيمة لشهادة متخصص مثلي باللغة الإنكليزية وآدابها قضى حوالي نصف قرن في تعليمها على المستوى الجامعي وترجم منها ما يزيد عن عشرين كتاباً فإنني أقول: إن اللغة الإنكليزية بالغة الصعوبة، وإن إتقانها يحتاج إلى عقود، وليس إلى سنوات، وإن هذه العقود لن تكفي لأن اللغة في هذه العقود تتطور بحيث تخلف أجيالاً من الناطقين بها ممن يحتاجون هم أيضاً إلى دراستها لاستدراك بعض ما فاتهم منها. ولإثبات ما أقول، ما عليكم سوى أن تعلموا أن لغة شيكسبير، وهي لا تعود لأكثر من أربعة قرون، تحتاج في هذه الأيام إلى ترجمة إلى اللغة الإنكليزية المعاصرة حتى يفهمها الإنكليز أنفسهم. أما اللغة التي تُدعى (Old English) فهي في واقع الحال لغة ثانية يتعلمها الإنكليز إن احتاجوا في هذه الأيام كما قد يتعلمون الألمانية أو الإسبانية.

القصد من هذا الكلام أن أقول: إن ما جعل اللغة الإنكليزية لغةً عالميةً في العالم الحديث سببه الحاجة إليها وليس صفةً خاصّةً فيها. والحاجة إليها ليست دليلاً على سهولتها، بل دليلٌ على صحّة قانونٍ في مجال تعلّم اللغات مفاده أننا نتعلّم من أيّ لغةٍ من اللغات بقدر ما نحتاجه منها، وأن ما أعطى اللغة الإنكليزية هذه المكانة العالية وضعّ تاريخيٍّ قوامه القوّة العسكرية، والقوّة الاقتصادية، والقوّة العلمية للأمم الناطقة بها. وهذه القوى تتلازم في العادة. فالقوّة العسكرية تحتاج إلى المال والعلم، والقوّة الاقتصادية تحتاج إلى العسكر والعلم، والعلم يحتاج إلى المال والعسكر ولو بطريقة غير مباشرة.

كذلك لا بدّ أنكم تعلمون أن الأمم الناطقة باللغة الإنكليزية تحرص حرصاً شديداً على تعليم اللغة الإنكليزية للناطقين بغيرها، فتتسوّى لذلك قنواتٍ لتعليمها من أمثال المجلس الثقافي البريطاني وما يشبهه من الجانب الأمريكي، وتزوّد بها بالمعلّمين والكتب التي يمكن أن تُقرأ في المجلس نفسه أو أن تُعار للقراء إن لزم الأمر. ولقد يبدو أن هذه المؤسّسات التعليمية تعمل لوجه الله، أو حباً في نشر الثقافة، أو لأغراض خفية أخرى. لكنّ الواقع يقول إن السائح العربي الذي يعرف اللغة الإنكليزية ويريد قضاء شهرٍ أو شهرين للسياحة والاستجمام لن يذهب إلى بلغاريا أو إيطاليا أو ألمانيا حيث سيجد صعوبةً في التفاهم مع الناس في السوق أو في الشارع، بل سيذهب إلى بلدٍ يمكنه التفاهم مع أهله بسهولة. وفي هذا ما فيه من مردود اقتصادي. أقصد أن تعليم لغةٍ من اللغات لأبناء الأقاليم الأخرى استثمارٌ اقتصاديٌّ وثقافيٌّ على

المدى البعيد. وقد قيل: Shakespeare is an industry^(٢)، بمعنى أن ما يباع من مسرحياته وأشعاره في جميع أنحاء العالم يدرّ دخلاً لا يستهان به على الاقتصاد البريطاني، وأن كتاباته تستخدم لترويج البضائع والصناعات.

حدثت في القرن العشرين حربان عالميتان مدمرتان كانت ألمانيا طرفاً فيهما، وانتهت كلُّ حرب منهما بإنشاء منظمةٍ دُوليةٍ قُصد منها منع حدوثِ حربٍ أخرى في المستقبل. وقد فشلت المنظمة الأولى في منع الحرب، فجاءت الحرب العالمية الثانية بعد أقل من عشرين سنة. ثم تشكّلت بعد الحرب العالمية الثانية منظمةٌ ثانيةٌ هي هيئة الأمم المتّحدة. ومع أن هذه المنظمة الثانية جاوزت السبعين من العمر ولم تحدث فيها حربٌ عالميةٌ ثالثة، فإن هذه المنظمة فشلت -وما تزال تفشل- في منع الحروب في جميع أنحاء العالم. ولن أزعجكم بسلسلة الحروب الطويلة التي حدثت بعد الحرب العالمية الثانية، فهي معروفةٌ لديكم، وقد لحقت بالبلاد العربية منها كوارثٌ ما زلنا نعاني منها. لكنّ ما أريد قوله في هذا المجال إن البلاد العربية في أثناء الحرب العالمية الأولى كانت كلّها تعاني من الاستعمار الغربي بعد قرون من التبعية للإمبراطورية العثمانية، ولذلك لم تنشأ الحاجة إلى جعل اللغة العربية واحدةً من لغات عصابة الأمم. أما بعد الحرب العالمية الثانية فقد استقلّت بعض البلاد العربية، وأنشئت جامعة الدول العربية، وظهرت أهمية المنطقة العربية عندما تبين أن أرضها تحتوي في باطنها على نسبةٍ كبيرةٍ من نِفط العالم، وأنها مقبلةٌ على قدرٍ من التحديث، وأن الصراع العربي الإسرائيلي قد لا يقف عند حدود فلسطين. لذلك فإن هيئة الأمم

(٢) <https://transmedialshakespeare.wordpress.com/2011/03/15/shakespeare-in-advertising-2/>

اعترفت باللغة العربية بصفقتها واحدة من اللغات الرسمية في ذلك المحفل الدولي. لكن متى جاء هذا الاعتراف؟ لقد انتظر ما يقرب من ثلاثين عاماً بعد إنشاء هيئة الأمم المتحدة، وبعد أربع حروب مدمّرة خاضها العالم العربي: حرب سنة ١٩٤٨ التي انتهت بزحف إسرائيل في فلسطين؛ وحرب قناة السويس التي تأمرت فيها بريطانيا وفرنسا وإسرائيل ضدّ مصر وما كانت مصر تُعدُّ به من نهضة قومية؛ وحرب سنة ١٩٦٧ التي كانت كارثةً قوميةً ثانيةً أكملت فيها إسرائيل احتلال البقية الباقية من فلسطين وأجزاء من بلادٍ عربيةٍ أخرى. كلُّ هذه الحروب لم تُقنع هيئة الأمم المتحدة أو مجلس الأمن فيها بأن اللغة العربية لها من الأهمية ما يؤهلها لأن تكون واحدة من لغاتها الرسمية. أخيراً جاءت حرب سنة ١٩٧٣، وفيها أظهر العرب بعض القوة، ولا سيّما قوّة النفط. عندئذٍ فقط جرى الاعتراف باللغة العربية لغةً رسميةً من لغات ذلك المحفل الدولي.

لكن فلنعد قليلاً إلى أوائل عهد منظمة الأمم المتحدة. كانت اللغات الرسمية فيها هي لغات الأمم المنتصرة في الحرب العالمية الثانية: الإنكليزية، والفرنسية، والروسية، والصينية. ونحن عندما نذكر اللغة الصينية في هذه الأيام فإننا نفكر في الصين التي بلغ عدد سكانها حسب إحصاء سنة ٢٠١٦ ملياراتاً وثلاثمئة وتسعة وسبعين مليوناً. لكن الصين التي جعلت هيئة الأمم المتحدة لغتها لغةً رسميةً من لغاتها لم تكن هذه التي نعرفها هذه الأيام، بل كانت فرموزا التي كان يحكمها (چيانغ كاي شك)، وتدعى الآن تايوان، وهي جزيرةٌ عددُ سكانها في هذه الأيام يقرب من ثلاثة وعشرين مليون نسمة، أي إن الصين التي اعترفت بلغتها لغةً رسميةً آنذاك، والتي احتلت مقعداً دائماً في مجلس الأمن، كانت تعادل ٦٪ من عدد سكان الصين.

وهذا مثال صارخ على أن الاعتراف بعالمية اللغات يعتمد اعتماداً كبيراً على السياسة والقوة. ولكن فلننظر قليلاً في هذه اللغات العالمية التي تعترف منظمة الأمم المتحدة بأنها لغات عالمية يمكن استعمالها في الوثائق التي تصدر عنها.

تتفاوت الأرقام المتوافرة على الشبكة تفاوتاً ملحوظاً. هذه أرقام مأخوذة من هذا

الموقع: <http://aboutworldlanguages.com/international-languages>

١- اللغة الصينية المندرينية: عدد الناطقين بها بليون ومئة مليون.

٢- اللغة الإنكليزية: عدد الناطقين بها ٩٨٣ مليوناً.

٣- اللغة الهندوستانية: عدد الناطقين بها ٥٤٤ مليوناً.

٤- اللغة الإسبانية: عدد الناطقين بها ٥٢٧ مليوناً.

٥- اللغة العربية: عدد الناطقين بها ٤٢٢ مليوناً.

هذه الأرقام تشير إلى عدد من يتكلمون هذه اللغات، سواء أكانت هذه اللغات هي اللغات الأم أم اللغات المستخدمة في الحياة اليومية. ولإيضاح الفكرة أقول: إن في الأردن أعداداً من الشركس والشيشان الذين يتكلمون اللغة العربية في الشارع والسوق والمدارس والدوائر الرسمية، ولكنهم يتكلمون اللغة الشركسية أو الشيشانية في البيت والمناسبات الخاصة بهم، وقل مثل ذلك عن أمازيغ شمال أفريقيا، ونسبة كبيرة من أكراد العراق وسورية. وقد وضع أحد المواقع عدد من يتكلمون العربية بصفتها اللغة الأم عند حدود ثلاثمئة وخمسة عشر مليوناً.

ماذا يعني ذلك؟ ينصّ أحد المواقع على الشبكة أن الأسباب الكامنة وراء اختيار اللغات لتكون لغات رسمية في هيئة الأمم المتحدة أسباب سياسية بالدرجة الأولى. ومن الواضح أن كلمة "سياسية" ليست صفة لغوية لها علاقة بالفصاحة أو سهولة التعلّم أو كثرة المفردات، بل هي صفة تشير إلى المصالح والصراع، المعلن منه والخفيّ. ولكن لا شكّ في أن أعداد الناطقين بلغة من اللغات لها دور، ولكن الدور الأكبر تستحوذ عليه السياسة وليس الأعداد. وقد نظرتُ في قائمتين منشورتين على الشبكة ترتبان اللغات العشرة الأولى حسب أعداد الناطقين بها فوجدت بينهما بعض الاختلاف في الترتيب وإن بقيت اللغات العشر هي هي، وهذا هو الترتيب في إحداهما:

١- الصينية، عدد الناطقين بها حوالي بليون وثلاثمئة مليون نسمة.

٢- الإسبانية، عدد الناطقين بها ٤٤٢ مليون نسمة.

٣- الإنكليزية، عدد الناطقين بها ٣٧٨ مليون نسمة.

٤- العربية، عدد الناطقين بها ٣١٥ مليون نسمة.

٥- الهندية، عدد الناطقين بها ٢٦٠ مليون نسمة.

٦- البنغالية، عدد الناطقين بها ٢٤٣ مليون نسمة.

٧- البرتغالية، عدد الناطقين بها ٢٢٣ مليون نسمة.

٨- الروسية، عدد الناطقين بها ١٥٤ مليون نسمة.

٩- اليابانية، عدد الناطقين بها ١٢٨ مليون نسمة.

١٠- البنجابية، عدد الناطقين بها ١١٩ مليون نسمة.

قد لا تكون هذه الأرقام دقيقة، وقد يختلف الترتيب من قائمة إلى أخرى، لكن الملاحظ أن هذه القائمة تخلو من اللغة الفرنسية، بينما اللغة الفرنسية واحدة من اللغات الأصلية في الأمم المتحدة، وواحدة من اللغات المستعملة رسمياً في مداولات الجمعية العامة للأمم المتحدة. وليس السبب أن فرنسا كانت إحدى الدول الاستعمارية الكبرى في الماضي فقط بل هو أن اللغة الفرنسية كانت لغة الدبلوماسية في الماضي وأن الثقافة الفرنسية ما تزال من أهم ثقافات العالم، وأن باريس ما تزال عاصمة الثقافة العالمية في العصر الحديث رغم ما تتمتع به لندن ونيويورك من أهمية.

أقصد من هذا الكلام أن أقول: إن القوّة العسكرية -على أهميّتها- ليست هي العامل الحاسم في جعل اللغة لغة عالمية. ولو كانت القوّة العسكرية هي العامل الحاسم لكانت العبرية هي أقوى اللغات في الوقت الحاضر لأن إسرائيل تهيمن على أمريكا وما تملكه من القوّة العسكرية كما فهمنا مؤخراً من أقوال الرئيس (دونلد ترمب) وأفعاله. وقد استعملت إسرائيل هذه القوّة فعلاً لتدمير العراق، وقد تستعملها في المستقبل إن دعت الحاجة. ولكن من غير المتوقع أن تصبح اللغة العبرية لغة عالمية لأن أغلب اليهود يعيشون في بلادٍ تستعمل لغات أخرى. ومع أن لليهود في تلك البلاد مساهمات كبيرة في ثقافتها فإن تلك المساهمات تستعمل لغات البلاد التي يعيشون فيها، ولا يكتبون بالعبرية. ولذلك فإن الكتاب اليهود من أمثال آرثر ميلر، ونورمن ميلر، وسول بيلو، وغيرهم ينتمون إلى الأدب الأمريكي وليس إلى الأدب الإسرائيلي.

ماذا يعني ذلك للغة العربية؟ فلنسلّم أولاً بأن العالم العربي مجزأ، وأنه ربما كان في طريقه إلى مزيد من التجزئة، وأن فكرة الوحدة لم تعد تخطر على بال أحد، ولو خطرت فإنها لا تُحمَل على مَحْمَل الجِدِّ، لا من الحكومات ولا من الجماهير العربية، وأن الجامعة العربية تحوّلت إلى مؤسسة شكلية يجتمع فيها ممثلو الدول العربية -بحكم العادة- اجتماعاتٍ أقرب إلى السياحة منها إلى الفعل الجِدِّي المفيد. لكن هل يعني ذلك أن اللغة العربية في طريقها إلى التفتّت والزوال؟ أحسب أنكم جميعاً قد لاحظتم أن حواسيبكم تسألكم عندما تختارون الطباعة باللغة العربية أن تختاروا اللغة العربية التي تفضّلونها: هل هي لغة الأردن أم المملكة العربية السعودية؟ وأقْدِر أن الخيارين المتاحين للسوداني هي العربية السودانية أو المصرية، وهكذا مع بقية الدول العربية. والفرضية الكامنة وراء هذه الخيارات هي أن العربية لهجات، وأن مستعمل الحاسوب سيستعمل العربية المحليّة وليس العربية الفصيحة التي لا تختلف بين الأردن والسودان وتونس. ولكي لا نسيء الظن بغوغل لا بدّ أن نلاحظ أيضاً أن الحاسوب يسألنا إن كنا نريد أن نستعمل إنكليزية الولايات المتّحدة أو إنكليزية المملكة المتّحدة، ففيهما تختلف التهجئة في بعض المواقع، ويعطيك الحاسوب إشارة تقول إن هذه التهجئة أو تلك خطأ من وجهة نظر الإنكليزية التي اخترتها. ولا تكمن وراء الإنكليزيتين نيّة القول إنهما لغتان مختلفتان. أكثر ما يقال إن هناك (British English) و(American English)، كما قد نقول نحن "لهجة مصر" و"لهجة العراق" دون الإيحاء بأننا نتكلّم عن لغتين مختلفتين. لكن هنالك من يدّعي أن اللهجات العربية لغات وليست لهجات فقط. انظر

[./https://www.fluentin3months.com/msa-or-dialect](https://www.fluentin3months.com/msa-or-dialect)

هذا الموقع لا يتحرّج من الحديث عن اللغات العربية، والحجّة عند صاحب الموقع هي أن عرب المشرق لا يفهمون عرب المغرب، وأن الأوروبي الذي يتعلم العربية الفصيحة سيجد أن من الصعب عليه أن يتفاهم مع الناس في الشوارع والأسواق لأن الناس سيستهجنون لغته الفصحى، وهو لن يفهم لهجتهم المحلية. وإليك هذا الاقتباس الطريف من أحد المواقع على الشبكة:

"تضع الإحصاءات الحديثة أعداد العرب الناطقين بالعربية بصفتها اللغة الأم عند حوالي مائتين وخمسين مليوناً، ولكن هذه حكاية أخرى عن كون الأعداد لا تفصح عن الحقيقة الكاملة: فالعربية، شأنها شأن اللغة الصينية، يبلغ من اختلاف لهجاتها أن بإمكاننا القول إنها تتكوّن من لغات توصف بأنها لغة واحدة لما في ذلك من تبسيط. فاللغة العربية المعتمدة الحديثة هي بالدرجة الأولى لغة الكتابة، وهي تتصل اتصالاً وثيقاً بلغة القرآن الكلاسيكية. أما الأشكال المحكية من العربية في عُمان ومراكش على سبيل المثال فيبلغ من اختلافها أنه لو التقى أستاذان في الفلسفة لتمكّنا من بحث الأمور الفلسفية الدقيقة ولوجدا صعوبة بالغة في طلب وجبة الغداء".

<https://www.babbel.com/en/magazine/the-10-most-spoken-languages-in-the-world/>

لكن هل هذه حالة تنفرد بها اللغة العربية دون سواها؟ كلُّ اللغات فيها مستويان على الأقل يسميان (formal) و (informal) في الإنكليزية، أو الفصيحة والعامية في العربية، أو المكتوبة والمحكية في بقية اللغات، هذا إلى جانب اللهجات المحليّة التي يصعب على أهل اللغة نفسها فهمها إلا بمقدار. وإذا عدنا إلى اللغة

العربية نجد أن العرب في جميع أنحاء العالم العربي لا يجدون صعوبة تذكر في فهم نشرات الأخبار -سواء أكان من يقرأها مصرياً أو عراقياً أو سودانياً أو مغربياً- أو فهم الصحف المكتوبة باللغة العربية مهما كان المكان الذي تصدر فيه.

غير أن اللغة العربية تتميز عن اللغات الأخرى بميزة أحسبها تنفرد فيها، وهي أن بنيتها اللغوية حافظت على قدر كبير من الثبات منذ ما يزيد على سئة عشر قرناً، بحيث يستطيع تلاميذ المدارس في شتى مراحلها أن يحفظوا، لا بل أن يفهموا، أبياتاً من الشعر الجاهلي، ومن شعر العصور الإسلامية المختلفة بأقل ما يمكن من الشرح والتفسير.

لكن لا شك في أن العامل الحاسم في احتفاظ اللغة العربية ببنيتها طوال هذه القرون هو نزول القرآن الكريم بها وانتشار الإسلام بين الأمم في مشارق الأرض ومغاربها، واحتفاظ الإسلام بهذا النص كما نزل، وما تبع ذلك من تثبيت النصّ القرآني ونهوض علماء اللغة بخدمته خدمة لا مثيل لها بحيث استقرّ هذا النصّ بعد الإعجام والتحريك على الشكل الذي نعرفه في هذه الأيام. هذا النص، هو وما يرافقه من حديث نبوي، حظي بخدمة خاصّة به، ينتشر الآن في مختلف بقاع العالم بين ما لا يقلّ عن سدس، إن لم نقل عن خمس، سگان المعمورة. وهذا يجعل من مقولة أن اللغة العربية لغة عالمية أشبه بتحصيل الحاصل رغم كلّ ما قد يقال عن ضعف العالم العربي والخشية عليه من التجزئة، ورغم كلّ المحاولات التي جرت للتتريك والتمصير والفُرْجَة، وكلّ المحاولات الخرقاء التي جرت للتخلي عن الحرف العربي.

غير أن التسليم بأن اللغة العربية لغة عالمية لا ينهي الموضوع بل يبدأه. وسمحوا لي هنا أن أتناول ثلاث مفارقات تثير الدهشة: أولها أن العالم العربي في الوقت الحاضر يستوردُ كثيراً من العمالة الأجنبية، لا سيما من شبه القارة الهندية والفلبين وأفريقيا، دون أن يشترطَ إجادة هؤلاء العمال حداً أدنى من معرفة اللغة العربية، وهي معرفةٌ يمكن أن يحصلوا عليها في بلادهم أو في الدول العربية التي يريدون العمل فيها في معاهد تنشئها الدول العربية لهذا الغرض. وهذه عملية يمكن أن ينتج عنها شيئان إيجابيان: أولهما نشر اللغة العربية في العالم، وثانيهما تحقيق دخل لا بأس به. أما ما يحصل فهو أن التفاهم يجري في كثير من الحالات بلغة وسيطة هي في العادة اللغة الإنكليزية. فالأمر المعتاد في بقية أنحاء العالم هو أن العمالة الأجنبية مضطرةٌ لتعلم لغة البلد الذي تنوي العمل فيه.

أما المفارقة الثانية فهي أن هذا العالم العربي الذي يزهو بأن لغته العربية لغةٌ عالمية لا يثق بهذه اللغة ثقة تجعله يؤمن بأن هذه اللغة تصلح للتعليم الجامعي في مجال العلوم، ولذلك فإن مدرّسي المواد العلمية في الأقسام العلمية يعارضون الدعوات الخاصة بتعريب التعليم الجامعي بحجة أن اللغة العربية تحتاج إلى المصطلحات العلمية لأن العلم ينشأ في الغرب، ويكتب باللغات الأخرى، لا سيما اللغة الإنكليزية. أنا أعرف أن هذه القضية قضيةٌ قديمةٌ جديدة، وأن مجمع اللغة العربية الأردني قد وقف جانباً كبيراً من جهوده من أجل تعريب التدريس الجامعي، وأعدّ لذلك بعض الكتب التي تصلح للاستعمال في بعض المواد العلمية، ولكن هذه الجهود لن تثمر ما لم يتخذ القرار السياسي بتعريب التعليم في كافة التخصصات. لا شك في أن القرار لن يعجب الكثيرين ممن يزهون بالتحدّث باللغة الأجنبية، وسيأتون بأعذار كثيرةٍ نعرفها

كلّها. البدايات صعبة دائماً، ولكنها تدلّ بالإرادة والعمل الدؤوب، سواء منه الفرديّ أو الجماعي.

أما المفارقة الثالثة والأخيرة فهي أن هذه اللغة العالمية، لغة الدين والدولة في بلد عربيّ كالأردن، تحتاج إلى قانونٍ لحمايتها، قانونٍ ما يزال يواجه صعوبات في التطبيق. إن القانون الذي يُكتَب دون أن ينفَّذ، أو لا يراد له أن ينفَّذ، يبقى حبراً على ورق. وما نرجوه هو أن يتحوّل الحبر على الورق إلى أفعال في الشوارع والمكاتب والشركات ودوائر الدولة. وإلا فما الفائدة من إقناع السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية ليسنّ قانون لا تتوافر النية لتطبيقه؟

نعم: اللغة العربية لغة عالمية، لكن على أهلها أن يحترموها أولاً.



